سلمان ناطور

الترجمة بين الخطاب الثقافي والخطاب المخابراتي

" قُيِّض لي" – هي ترجمة الجملة العبرية " نافال بحِلكي " – נפל בחלקי –. وفي اللغتين تعنيان "حالفني الحظ ". وقد لاحظت في خلال سنوات طويلة من الاشتغال بالترجمة من والى اللغتين ، العبرية والعربية، أننا نكثر من استعمال هذه الجملة. ففي كل واحد منّا رغبة جامحة لأن يكون الأول الذي "قُيِّض له". ربما ان هذا هو شكل من " الطلائعية " اللاواعية التي تغلغلت في اذهاننا من الادب الذي كتب عن " الطلائعيين، اولئك الذين جففوا المستنقعات وزرعوا اشجار الكيناء وحرثوا الارض. واولئك المحتلين الأوائل والمهجّرين الأوائل". واذا كان هناك اصطلاح يعبّر عن الاسرلة والفلسطنة بصفتهما مجتمعين في مرحلة التبلورمن خلال الصراع الدائم في ما بينهما، فهو هذا ال" نافال بحلكي " – "נפל בחלקי" و"قيض لي ".

قيض لي ان اترجم يشعياهو ليبوفيتش الى اللغة العربية ، مثلما قيض لي ترجمة " الزمن الاصفر " لدافيد غروسمان و " السيد ماني" ل أ.ب يهوشواع وقصائد نتان زاخ ودالية رابيكوفيتش وأرييه سيفان وقصص لعاموس عوز وبنيامين تموز ويتسحاق لاؤور وفي كل مرة انشغلت بترجمة نص عبري كان يشغلني السؤال : كيف سأنجح بنقل المشاعر والشحنات العاطفية التي تحملها الكلمات. فالكلمات الادبية ليست تشكيلة من الاحرف. انها تعبق برائحة ولها طعم ولون وفي الترجمة يمكن استبدال الاحرف، لكن يجب الابقاء على الرائحة والطعم واللون كما هو، قدر المستطاع، وعلى شيء منه وهذا أضعف الايمان.

هذا الأمر ينطبق على عملية الترجمة بشكل مطلق، من والى كل لغة وفي كل الظروف السياسية والاجتماعية وبغض النظر عن

في الخطاب المخابراتي للترجمة من العربية الى العبرية، بحث الاسرئيليون في النص العربي عن الكلمات الملطخة بالدم. حتى انهم ذهبوا الى ابعد من ذلك وسلّموا عملية الترجمة لضباط الجيش والمخابرات لنقل ما كتبه شعراء فلسطينيون، فصوّر احدهم فدوى طوقان من آكلة لحوم البشر ويحلو لها التهام كبد انسان. ومحمود درويش يحمل مكنسة ويدفع باليهود واحلامهم نحو البحر. ولم يأبهوا للآفتة الصغيرة التي علقها كاتب فلسطيني على باب غرفته : " خليل السكاكيني. انسان ان شاء الله ".

الدوافع للترجمة.

هكذا يبدأ الخطاب الثقافي في عملية الترجمة، لانك بواسطة الترجمة تريد ان تقول اشياء تتجاوز النص. انت تحاور الكاتب ولغته وكذلك قراءه وقراءك وتحاول تفكيك "علبة سوداء" تحتوي على خبايا الكاتب الاخلاقية والثقافية والعاطفية ، وخبايا المجتمع الذي يعيش فيه.

في حالة الحرب والصراعات القومية ، يقوم بعملية الترجمات المتبادلة، في معظم الاحيان، هم اجهزة المخابرات والقوات المسلحة. وعندها يمنحونها صفة مدنية توضع تحت شعار " إعرف عدوّك ".

في الخطاب المخابراتي للترجمة من العربية الى العبرية، بحث الاسرئيليون في النص العربي عن الكلمات الملطخة بالدم. حتى انهم ذهبوا الى ابعد من ذلك وسلّموا عملية الترجمة لضباط الجيش والمخابرات لنقل ما كتبه شعراء فلسطينيون، فصوّر احدهم فدوى طوقان من آكلة لحوم البشر ويحلو لها التهام كبد انسان. ومحمود درويش يحمل مكنسة ويدفع باليهود واحلامهم نحو البحر. ولم يأبهوا للآفتة الصغيرة التي علقها كاتب فلسطيني على باب غرفته : " خليل السكاكيني. انسان ان شاء الله ".

وفي الخطاب المخابراتي للترجمة من العبرية الى العربية، بحثنا نحن الفلسطينيين عن الكلمات العبرية المشبعة بالحقد. بحثنا في كتابات شموئيل يوسف عجنون عن "العربي المتخلّف والبدائي". وفي قصص " حسامبا " ليغئال موسينزون وجدنا مبحثنا المخابراتي. ولم نحب " الخواجة موسى " لموشي سميلانسكي الى ان جاء نتان زاخ وقدم لليهود والعرب درساً في الحساب " عن الرغبة في التدقيق " والتدقيق في عدّ الجثث الممدّدة في صبرا وشاتيلا.

الخطاب المخابراتي يسحق الانسان ويفقده قيمته، كما يسحق المبدع والابداع. وعلى هامش الثقافة او في النص اللاثقافي ينشأ ويكبر " الستريوتيب " الذي لا يؤدي دوراً بشعاً وحسب بل يأتي لإعالة باحثين أكاديميين في دراسة " شخصية العربي في الادب العبري " و " شخصية اليهودي في الادب العربي " بحيث ان استنتاجاتهم تسبق ابحاثهم ، ولا يهم ان كانت سلبية او ايجابية.

الترجمة المخابراتية هي عدو الثقافة والابداع والادب الساخر والضحك. انها تمسخ النص وتجعل من الحنين الى الوطن " عبوة ناسفة " ومن الحلم " غرضاً مشبوهاً " ومن الحرية " قنبلة مفخخة " لأن هذا هو هدفها وهي تعمل في خدمة الحرب والثورة والاحتلال. مثلما هي هكذا في حالة الحرب ، فهكذا تكون في حالة السلام. وفي هذا المعنى لا فرق بين أن تترجم تحت شعار "اعرف عدوك" أو تحت شعار "اعرف صديقك"، لأن تحميل الترجمة مسؤولية تسوية العلاقات السياسية والدبلوماسية فهذا أمر لاتحتمله اللغة ولا النص ولا القواميس.

في السنوات الاخيرة يحلو لنا ان نستعمل كلمات مثل : الادب في خدمة السلام. الاطفال والسلام. والترجمة من اجل السلام. كأن هذا السلام الذي سيتحقق ، قائم فقط على الترجمة وخلق شخصيات ايجابية عن الآخر. ان هذه هي ايضاً عملية مخابراتية سياسية تتجاوز الخطاب الثقافي وتقهره وتفسح مجالاً واسعاً لإنتشار الثقافة السطحية والهامشية بواسطة فناني وكتّاب بلاط وملوك ورؤساء وحكومات . هؤلاء الفنانون سوف يحظون باهتمام ليس لقيمة ابداعهم وانما لشعاراتهم المبتذلة عن السلم والتعايش.

هذا الخطاب يخلق تطبيعاً سخيفاً ومزيفاً ومراوغاً وياتي لتخطي الخطاب الثقافي الحقيقي الذي يثير الاسئلة اكثر مما يوفّر الاجوبة.

في الخطاب الثقافي كل سؤال مشروع حتى السؤال عن مجرد

وجود الأنا والآخر وعن حقوقه التاريخية والاخلاقية. وهو لا يتاثر بالرأي العام ولا يصبو للتأثير عليه.

الخطاب الثقافي معصوم عن الديماغوغيا وهو يثير القضايا الحقيقية المتعلقة بهوية السائل والمجيب. انه خطاب يقع خارج البروتوكول ، خطاب حر يبدو سوداوياً في احيان ووردياً في احيان اخرى. إنه خطاب باطني عندما يتّصل بالآخر يفهم على علاته وباطنيته. الخطاب الثقافي يجري على اعمق مستويات الوعي الجماعي ، ولذلك فان عملية الترجمة ليست نشاطاً ميكانيكياً وإنما هي جزء من هذا الخطاب ، جزء من الثقافة ومن وعي الاطراف المتخاطبة.

في الفترة التي تلت التوقيع على اتفاقات أوسلو جرت لقاءات عديدة شارك فيها كتاب ومثقفون وصحافيون اسرائيليون وفلسطينيون ومصريون ومغربيون وأردنيون وتونسيون. وفي الجلسة الاولى من كل لقاء كان يثار السؤال حول اللغة : باية لغة يتكلمون ، بالعربية ام العبرية ؟ وفي النهاية يتفق على التكلم باللغة الانكليزية.

عادة، لأن المشاركين هم من المثقفين فقد كانوا جميعهم يجيدون اللغة الانجليزية وفي أحيان كان يشترط معرفة اللغة الانكليزية للمشاركة، أو يكتب على الدعوات : تجري اللقاءات باللغة الانكليزية. وكانوا يعرفون عن انفسهم بهذه اللغة ، وسط اجواء من الغربة والترقّب ، الى ان يبددّها أحدهم وهو عادة فلسطيني لا يجيد اللغة الانكليزية، فيقول: بما انني سأقول كلمات مهمة فسأتحدث باللغة العربية . ويرد عليه اسرائيلي يبحث عن فرصة لوضع اللغة العبرية "على الطاولة" فيقول : بما انني سأقول كلمات مهمة فسأتحدث باللغة العبرية. والاثنان يطلبان من العربي ابن ال٤٨ ترجمة اقوالهما. ان استعمال اللغتين كان يكسر جمود اللقاء

في اللقاء الثقافي بين اليهود والعرب يستطيع كل واحد التحدث بلغته ، فلغة الأم تمنحه القدرة على التعبير عن نفسه بصدق وامانة الى ان يجيد الشعبان استعمال اللغتين.

في الخطاب الثقافي انا أميّز بين اغنيتين : اغنية الصالون واغنية الحمّام ، فان اهمية اغنية الصالون هي في الصياغة المحكمة والادعاء الايديولوجي والسياسي وقدرتها على الاقناع. انها اغنية الشعار. واما عندما نغني في الحمام. تحت رشاش الماء البارد ، فاننا نطلق الاغنية الحقيقية ، التي تعبّر عن وحدتنا وعُرينا ووجدنا العاطفي. الخطاب الثقافي في عملية الترجمة يقودنا الى التعارف الحقيقي بين الشعبين. بحيث ان التماثل يأتي من الاختلاف ، ويصبح النص الادبي هو الاساس للحوار الثقافي. ان سلطة النص تصبح هي النظام المركزي الذي يقرّر شكل الحوار واتجاهاته ونتائجه طبعاً.

بين ادب الحرب وادب السلام هناك ادب غني عن الانسان كإنسان ، عن الانسان البسيط ، وعن التفاصيل الصغيرة في حياتنا ، عن الحرب والكراهية ، عن رغبات شخصية وآلام فردية ، عن حياة البؤساء ، الى جانب حياة الترف ، عن قتل على خلفية شرف مطعون الى جانب اوصاف جنسية ابداعية ، مثل هذا الادب يجب ان يترجم دون اي تأجيل.

بكثير من المتعة ترجمت كتاب يشعياهو ليبوفيتش. " أحاديث في العلم والقيم " . لم اعتبر هذا رسالة قومية بل واجباً ثقافياً وتجربة فلسفية من شأنها ان تسهم في إغناء الحوار الثقافي ، بغض النظر عن الأحداث السياسية والعسكرية في المنطقة. ويسعدني انني اقدّم نصاً فلسفياً للقارئ العربي وليس نصاً سياسياً من انتاج يشعياهو ليبوفيتش ، اذ انني تعرّفت عليه قبل ربع قرن كفيلسوف ومفكر وهو شهد عن نفسه وتشهد عليه كتاباته انه أقام مواقفه السياسية على فلسفة الاخلاق التي آمن بها وعلى عالم من القيم الانسانية.

قبل ان أباشر بعملية الترجمة عدتُ الى مؤلفات مفكرين عرب معاصرين. وبشكل خاص الى فيلسوف مصري انشغل طول حياته بالفلسفة الاخلاقية. وكان بإمكانه ان يحاور ليبوفيتش من المنطلق ذاته ، حيث ان مصادرهما مشتركة وكذلك آراءهما وتمييزهما بين عالم العلم وعالم القيم ونظراتهما الى التديّن والموضوعية في العلم والحياة. انه المفكر زكريا ابراهيم ، فيلسوف الاخلاق العربي ، الذي ألف اكثر من اربعين كتاباً في الفلسفة. واقترح هنا ترجمة مؤلّفة " المشكلة االخلفية " الى اللغة العبرية والذي صدر لأول مرة عام ١٩٦٩.

كان يشعياهو ليبوفيتش رجل أخلاق ، وقد أقام عالماً من القيم على الاختبارات الفردية التي تضمن الحرية للانسان كانسان. فما هام في نشوة النصر العسكري وما صدّق فرية القاء التهمة على الضحية، فقد استطاع ان يميز بين الضحية والقاتل. وان يقول الحق كمن اقسم اليمين في المحكمة ان يقول الحق ، كل الحق ولا شيء غير الحق.

معرفة الآخر هي مهمة الترجمة الأولى، والآخر هو عالم قائم بذاته، لا يعقل أن كل ما فيه خير ولا يعقل أن كل ما فيه شر، ففيه خير وفيه شر، ومعرفته على حقيقته يجعل عملية الترجمة فعلا ابداعيا بصفته انسانيا أولا ثم تأتي حرفيته الفنية.